من تراب الطريق (٤٨٧) بين الثعالب والكلاب ! (*)

العداء بين الثعالب والكلاب عداء قديم ، تجرى به الحكايات وتضرب عليه الأمثال ، ولكن الجاحظ كدأبه على الدوام ، يستخلص ما قد لا يراه سواه ، فيعقد فصلا فى كتاب «الحيوان» عن خبث الثعلب والكلب ، فيروى عن صديق صاحب صيد وقنص ، تعجبه من خبث الثعلب ! وكيف يتميز بخبثه فيفرق فى احتياله بين الكلب والكلاّب .. والكلاَّب هو صاحب الكلاب المعدة للصيد .. فيحتال الثعلب للكلاّب بما يعلم أنه ينطلى عليه ، ولا يحتال بمثل تلك الحيلة للكلب ، لأن الكلب لا يخفى عليه الميت من المغشىّ عليه ، ولا ينفع عنده التماوت ، أى لا ينطلى عليه .. ولبراعة الكلب فى هذا الباب فإن المجوس لا يحملون من مات منهم أو ظنوا موته إلى النار ، إلاّ بعد أن يدنوا منه كلباً ، ليعرفوا خبر موته من حياته ، لأن الكلب لا يخفى عليه مغمور الحِسّ .. أحىٌّ هو أم ميت . ولذلك فإن للكلب عملاً لدى المجوس يستدلون به عليه !

يروى صديق الجاحظ ، أنه هجم ومعه ابنه على ثعلبٍ فى مضيق من المضايق ، فإذا بالثعلب ميت منتفخ ، فصد وانصرف عنه ، ولكنه لم يلبث أن لحقته الكلاب ، فما إن أحسّ بها الثعلب إلاّ ووثب كالبرق ، وأطلق سيقانه للريح !

(*) المال ٢٢/ ٩/ ٢٠١٠

سأل الجاحظ صديقه عن ذلك ، فقال له : « إن ذلك معروف من أفاعيل الثعلب ، وهو أن يستلقي وينفخ خواصره (بطنه) ويرفع قوائمه (أرجله) ، فلا يشك من رآه من الناس أنه ميت منذ دهر ، وقد تزكّر بالانتفاخ بدنه (أى عظم وامتلأ) ، فكنت أتعجب من ذلك ، إذ مررت يوماً فى الزقاق الذى فى أصل دار العباسة (ببغداد) ، ومنفذه إلى مازن ، فإذا جرو كلب مهزول سيئ الغذاء ، قد ضربه الصبيان وعقروه ، ففر منهم ودخل الزقاق ، فرمى بنفسه فى أصل أسطوانة (السارية أو العمود) فتبعوه حتى هجموا عليه ، فإذا هو قد تماوت ، فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك ، فانصرفوا عنه . فلما جاوزوا (أى ابتعدوا) تأملت عينى الجرو .. فإذا هو يفتحها ويغمضها ، فلما بعدوا عنه وآمنهم على نفسه . عدا وأخذ فى غير طريقهم (أى جرى فى اتجاه آخر) »!

استأنف صديق الجاحظ يقول له : « فأذهب ذلك الذى شاهدته ما كان فى نفسى للثعلب ، إذ إنه ليس فى الثعلب إلاّ الروغان والمكر ليحيد عن طالبه ، فإذا بالكلب قد ساواه فى أجود حيله »!!

ولكن الجاحظ يروى فى موضع آخر : إخفاق الثعلب فى استعمال خبثه .. حين فوجئ فلم تتح له حيلة ، فقد كان من أمر الروم فيما روى الجاحظ فى كتاب الحيوان أنه لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير ، واجتمع وجوه الروم إلى ملكهم يحرضونه على قتال العرب ، ويزينون ذلك بأنه قد أمكنته الفرصة من قتالهم وقد تشاغل بعضهم وانشغلوا بقتال بعض ، ووقع وتفشى اليأس بينهم ، ومن ثم فإن الرأى أن يغزوهم فى بلادهم ، لأنه إن فعل ذلك نجح وانتصر عليهم ، وأنه لا ينبغى له أن يدعهم ، لأنهم حين

تنقضي الحرب التى بينهم سوف يستديرون وينقضون عليه !

ولكن ملك الروم لم ير ما يراه وجوه القوم ، وجعل يبين لهم خطأ رأيهم وفساد مشورتهم ، فأبوا عليه إلا أن ينتهز هذه الفرصة ويغزو العرب فى بلادهم وهم منشغلون بالقتال الناشب فيما بينهم .

فلما رأى ملك الروم لجاجة وجوه ملكه ، أمر بكلبين فحرّش بينهما ، فاقتتلا قتالاً عنيفاً شديداً ، ثم أمر الملك بإحضار ثعلب فخلاه ، فما إن رأى الكلبان الثعلب ، حتى تركا للتو ما كانا فيه من عراك وقتال ، وأقبلا على الثعلب يهاجمانه حتى قتلاه .

نظر ملك الروم إلى الثعلب الذى قتل دون أن تتاح له الفرصة للتهاوت وصرف الخطر عنه ، ثم قال لوجهاء مملكته : كيف ترون ؟! فلما صمتوا ولم يجيروا جوابا ، قال لهم : هكذا العرب تقتتل فيما بينها ، فإذا رأونا نعرض لهم ، تركوا ما هم فيه واجتمعوا علينا !

تركت الثعلب ، وطفقت أتأمل فى حال العرب ، هل تغيرنا عمّا رآه فينا ملك الروم فى ذلك الزمان ، فوجدت أننا لا زلنا كما كنا من قبل ألف عام ، يصرفنا اقتتالنا عن عدونا ، مع أن العدو بادٍ ظاهر واضح لنا .. لا يترك حيلة لهلاكنا إلاّ اتبعها ، بينما نحن غرقى فى عراك بعضنا لبعض ، لا نسمع حتى شدو عبد الوهاب الذى صدح به من أكثر من نصف قرن :

«إلامَ الخلفُ بينكمُ إلامَ : وهذى الضجةُ الكبرى علامَ » ؟!!